بعض السعداء

(لبيتر التنبرغ)

* * * * *

اسعد من عَلَى وجه البسيطة غرانيق من الطير ترتع في بحيرة الحديقة العمومية وتعيش عَلَى شواطئها المنطاة بالقصب وتمرح لوحدها في البحيرة الواسعة وتتمتع بنعم التبدن كلها وبحماية البشر وكرمهم وبحرية خصوصية لا تُمنح لاحد سواها . يجيئها قوتها من مال المدينة في الشتآء وفي الخريف تطير فوق البحيرة مرفرفة خافقة باجنحتها عَلَى نغم موسيقي . والناس يحافظون عليها وعَلَى مآ ويها ويعتنون بافراخها كل الاعتناء .

كيف لا وهم يعدونها زينة ذلك المشهد الطبيعي . هنيئاً لها ! فانها حازت حب الجميع واعجابهم مع انها لم تصنع حسناً ولم تنل ذلك بخدماتها الجليلة وافعالها الصالحة . لا أحد يطاردها ولا من يقتلها ويستعمل لحمها

للاكل مشوياً . والناس يعللون ذلك تعاليل شتى ويعتذرون بقولهم ان لحمها قاس لا يصلح للاكل ابداً ... ولاجل جمال ذلك المشهد الذي تقوم هذه الفرانيق بخدمته دون علم منها أو قصد أو استحقاق يمتنع الناس عن اذاها حتى عن اخذ ريشها .

هذه الطيور المائية هي حبيبة الجمهور . ريشها يطفو على مرآة سطح البحيرة كندائف الثلج وليس من يلتقطه ويستعمله . ولم يقتل منها غير واحد فقط كان يتخطر في البحيرة واتاه وضفادعه فصدمت مجاذيف احد قوارب النزهة اتاه وفراخه دون قصد فهجم على القارب الصغير هجوم يائس عائل خافقاً بجناحيه فارتاعت الغادات الجالسات في القارب وهلعت قلوبهن خشية فاضطر الدليل ان يرميه بالرصاص فهلك لساعته في تلك الدقيقة—دقيقة احتدامه الناتج عن حبه واندفاعه ليذود عن اعز شيء لديه. ومات موتة بطل شريفاً محسوداً في حالة ذهول لا يشعر من يكون فيه بالم جسدي البتة

. . . . . .

ومن الذين أغدقت السعادة عليهم نعمها حصان قوي جميل أصيل يدعى « علي بابا » يخص احدى شركات توليد الخيل . فالناس يرفهون هذا الحصان ويعتنون به ويحافظون على قواه الحيوية لتبقى محفوظة لافراسه النجائب

من حوله على وجه البسيطة يعذبون الوفاً من الحيوانات ويهينونها لغير ما سبب . ولاغراض شتى يذبحون هذه ويبترون اعضاء تلك ويعلفون هاتيك حبراً ويطعمونها فوق طاقتها لتسمن وتصبح صالحة للذبح ما عدا ذلك

الحصان الاصيل الاشهب وحده · هنيئاً له ! انه يتمتع باللطف والملاينة والاعتناء والرفاهية عَلَى انواعها · واذا شاخ فلا يعدم علفاً غزيراً يُقدم له مجانا مكافاة عَلَى اتعابه السابقة وخدمة الجليلة التي لم تكن سوى من الملذات عنده

. . . . .

وقد كان في ما مضى رجل سعيد هو بيتهوفن الموسيقي · كان هذا أصم لا يستطيع سماع دناءات معاصريه الاقربين ورذائلهم فلم يكن يصغي الا الى انغام ترن دون انقطاع في داخله · وكان يقضي ساعات برمتها يصطاد السمك بالصنارة في احدى جزر الدانيوب مشغوفاً بصيده فاذا اصطاد سمكة لا تو، كل بعد انتظار ساعات عديدة يغتبط غبطة السعداء

وكان الناس يحسبونه شاعراً خولط في عقله · عَلَى انهم كانوا يحنون اله الرو،وس باحترام عميق · ولم يكن أحد يعيقه أو يحول دون عمله شيئاً · فكان يصب شكاويه من الارض كلها في ألحانه العميقة الهادئة ويبتسم ابتسامة حزن في انغامه الساحرة ساخراً من نفسه ومن الناس أجمع · وكان يحس في نفسه انه جالب المواهب ومفرقها ومنميها ومكثرها · ومع ذلك لم يكن يدرك هذا الامر حق الادراك بل كان يذهب الى الدانيوب ليصطاد سمكاً

. . . . .

ومما يجب اضافته الى المخلوقات السعيدة نوع غريب من الكلاب التي يطلقها ارباب المواشي من المتمولين في انكلترا عَلَى كلاب الماء التي تكون في السواقي أو في اوكارها أو في المناور الحجرية الضيقة عَلَى شواطىء الانهر ·

هذه الكلاب مصابة بمرض عضال هو بغض كلاب الماء بغضاً مبرحاً متأصلاً غريزياً حتى انها لتستهزأ بالموت بين انياب اعدائها الحادة . وهي تكره كلاب الماء ذلك الكره دون سابق عداوة او سبب . ويا لها من سعادة تتأجج في عروقها عندما يطلقونها عَلَى كلاب الماء . واذا تغلب عليها كلب الماء فانها تحسب الموت من انيابه الحادة لذة لا تصوّر . ولماذا القوة المعطاة لها ان لم تكن لاطفاء بغضها نحو اعدائها ؟

ولهذا تعد هذه الكلاب الصيادة من السعداء لانها لا تعرف سوى البغض والفتك وهوى نفسها . واذا تملص كلب الماء منها تحزن كل الحزن وترنو الكآبة من عيونها فيشبه وميض تلك النظرات رغبات انتقام يبتهوفن الهادئة — وتبقى الليل والنهار تفكر في اهلاك كلب الماء .

ولهذه الكلاب السعيدة أجسام عظيمة وشعر كثيف خشن واعين كئيبة عابسة حادة تبرق فيها اشعة مهنتها القاسية الغريبة الخالية من الشفقة القائل لسان حالها — الموت لكلاب الماء .

أجل ، هنيئاً لهذه الطائفة من الكلاب فانها من السعداء وتعرف صميم السعادة .

واما اولئك البشر الباقون ، المرتجفون خوفاً ، المتفرقون بحكم الزمان ، المطروحون في احضان الحياة ، فهم لا يعرفون لحظة من السعادة ، ويموتون مكروبين — وان يكن موتهم في غيبوبة بعض الاحيان — جازعين عَلَى نفوسهم المأسورة المضطهدة التي تهلك اختناقاً .